الموسم 14

9/ الحلقة 196

متى يومض البريق

مقدمة

أعوام مرت، يقفو بعضها بعضا،
كدنا ندخل في العقد الثالث من رحلة بحثنا عن فهد الأطلس، حسب توصيف بعض الشهود، أو نمر الأطلس الصياد، وِفق تقدير بعض الأفراد
عيوننا خلال كل هذه المدة من وراء عدسات كاميراتنا، ترويها الآمال والوعود
سلكنا إلى هدفنا الأزلي هذا، مسارات عديدةً لبلوغ مكمن هذا المفقود
عبر سجالات وارتجالات وحكايات طوال
والتزامات أثقل عبئاً من هذه الجبال
ورغم إحباطاتٍ وتيئيس وخيبات معرقلات كالعقال
فلا زلنا متشبثين بالتفاؤل وبالآمال

لم نقترب كما نرغب،
ولم نبتعد حتى نمضي لحالنا ونذهب.
لكننا واثقون، جازمون على أن تلك الآثار وشهادات الشهود، أولئك، هي بواعث ودلالات قوية تغرينا وتذكي بحثنا المضني على هذا الضاري.
بيد أن كل هذه المطاردات ليست مطاردات هوليودية مجانية.
بقدر ما هي همّ يسكننا لأجل تدارك ما يمكن تداركه في صالح هذه الأرض التي لحقها التدمير والتدهور الإحيائي والمناخي

وجدنا في طريقنا متعاونين من أهالي مناطق سبْرنا كانوا لنا، بشهاداتهم، خيطا رابطاً بين حلمنا وهذا الهدف المنشود؛
من الصحراء المغربية
من الأطلس الصغير، والكبير والمتوسط..
وهنا في هذا الأطلس المتوسطي، بأم البخت؛ وجدنا العدد الأكبر من هؤلاء المتعاونين، وأقوى القرائن والأدلة والشهادات الأقرب زمنياً إلى احتمال بقائه بهذه المناطق في هذه الآونة.

هذه الأدغال والجبال الغائرة حقا، هي أكثر ما يبعث في روعنا مهجة النبش والمواصلة وكأنها ترياق الحزن والشجن

إلى أن ينبعث في نهاية النفق بريق، ويُفتح من أمامنا أفق من بعد عسر وضيق.

متى يُومض البريق؟
امودو
فكرة وتقديم
الحسين فوزي
JINGLE

إلى هذه الغابات الأطلسية التي لا تسأم إلحاحنا في طلب إفشاء أسرار أحيائها، التجأنا كالعادة،
بعيدا عن المداشر والقرى وأماكن تردد الساكنة.
الضباب الكثيف، والهدوء التام يتآزران فيخلقان أجواء من الوجوم والسكون.
غيوم وعتمة مألوفة هنا حتى والموسم موسم صيف.
طفقنا من التأثر نرشف ريقنا رهبة وتحسرا، وما كدنا نخرج من هذا العالم المبهم، حتى طرأ على بالنا غموض آخر لا يقل إبهاما عن غموض هذا الدغل؛
إنه غموض اسم الفهد والنمر والخلط بينهما في قواميس اللغة العربية، وفي أذهان الحاملين لثقافتها.

فبينما الفهود نحيلة الأجساد، صغيرة الرؤوس، طويلة قوائمها ، وأكثر طولا من منطقة ظهورها، فالنمور على النقيض من ذلك، أضخمُ جسماً، أكبر رأسا، وأصغر قوائماً، وهي أنواع، تندرج تحت اسمها العلمي Panthera pardus ،
من منطقة عين الفهد، يمتد خط أسود عريض حتى نهاية وجهه، أشبه بدموع منهمرة، وهو ليس من الصفات الخلقية لشبيهه النمر وباقي أنواعه.

إحدى شهادات بعض شهود عيان بضواحي أم البخت، التي أدلى لنا بها السيد موحا أوسيبو، تومئ الى هذا الخط، مما يُحتمل معه أن يكون ذلك الضاري الذي يجوب هذه الجبال من حين لآخر، هو الفهد وليس نمرا.

يعتبر الجانب اللغوي غير المحسوم في اللغة العربية منذ تعرُّف العرب على النمر الفارسي المسمى بالببر، والذي ترنح مترجموه الأوائل بين ترجمته بالنمر تارة، وبالفهد تارة أخرى، بعد فتحهم لبلاد فارس، المصدر الأول لهذا الغموض، وأساس الإلتباس الحاصل بصدد التمييز بين هذين السنورين المتشابهين.

وقد انتقل هذا الإشكال المترسخ إلى شمال إفريقيا مع دخول العرب إليها، وتداول أهاليها للغتهم. كما انتقل إلى لهجاتهم العربية كذلك، فالتبس اسم السنوريَّيْن عليهم، وإلى الآن.

وهو الإلتباس نفسه الذي طال ترجمة النوعين المختلفين من العربية إلى اللغات اللاتينية.
ولم تنج اللغة الأمازيغية بدورها من هذا الإشكال أيضًا، حيث يطلق على النمر اسم أكسيل، وأبرشان، كما يطلق عليه كذلك إسم أغيلاس أو أغلياس الذي يطلق في ذات الوقت على الفهد المعروف في بعض المناطق أيضاً بأمسدَّا.

نكاية بالحيرة والارتباك الذي لازمنا خلال هذه الجولات المضنية، واصلنا بتحد رحلة بحثنا عن الفهد صوب منطقة موارفروف لمقابلة شاهد آخر يدعى السيد علي أوباها لسماع روايته عن مصادفته المحتملة لهذا الضاري.

استقبلنا الشيخ علي بمسكنه البسيط، بساطة حياة بدوي مثله
همومه بسيطة لا تتعدى رعاية نعاجه ودواجنه والتنقل من أجل البحث عن المأكل والمشرب لها.
داخل هذا المأوى، المبنيةُ جدرانه القصيرة بحجارة مرصوصة، وسقف من أخشاب المنطقة، حاورنا الشيخ الوادع الخبير ببيئته وخباياها.

- "ما اسم هذه المنطقة؟
- اسمها تالعفوت"

ولعله يضيف لنا جديدًا حول الضاري المبحوث عنه..

علي أوباها / شاهد
- "كم سنة وأنت تقطن هنا؟
- هنا؟
- نعم
- حوالي خمسين عاماً
- كم من الوقت مرّ على مصادفتك للنمر؟
- مرّ على الحادث حوالي ثلاثين سنة
وكان ذلك بمكان لا حس فيه لإنسان
كنا نرعى أغنامنا ونحن خائفون
ليس من طرف نمر أو حيوان ضاري
بل من البشر أنفسهم
كنا سبع أسر نسكن بتلك المنطقة
وكنت أنا مستقراً بمنطقة (أوعليا تيميريت) برأس مزيزل
في أحد الأيام أخرجت قطيعي صباحاً نحو المرعى

وصعدت الجبل بنفسي
- هل كان الجو باردا؟
- بل كان الجو صحواً ومشمساً حين التقيت به
في البداية وجدت آثار معركة
وآثار مخالب على الأرض
فتعرفت على النمر من خلال آثار مخالبه
وأقسمت أن أتتبّع آثار هؤلاء المتعاركين
لأرى بأم عيني ما يقع
ما وقع أن خنزيراً كان يحفر أسفل شجرة
ليأكل نبتة "قاوخزين" {الصرين}
ولم ير نمراً كان يتربص به وراء الشجرة
ولا أعرف من أي جهة انقض النمر على الخنزير
أمن الجهة اليمنى أم اليسرى
فشرعا في التعارك فوق الحجر
كان الخنزير واقفاً على قوائمه
وتحرك لمسافة قريبة
بعدها انبطح على ركبتيه
فعلمت أن النمر قد انتصر عليه
تمكن منه النمر وظل يضرب بقوائمه الخلفيتين
وتعجبتُ من قوة الخنزير
الذي تمكن من حفر حفرة بالأرض من شدة الألم
ولم يطلقه حتى خرجت روحه
كل ما أحكيه لك حقيقي، وأتذكره جيداً
ذاكرتي جيدة
بعدها أخذه مسافة
إلى أعلى قمة الجبل
حين أخذه بين فكيه، لم تكن جثة الخنزير مجرورة على الأرض
- استطاع أن يحمله؟
- نعم
أنا لم أرهما، ولكن عرفت ذلك من خلال آثارهما حين تتبعتهما
- ثم أخذه الى أعلى الشجرة؟
- كلا، انتظر
أخذه نحو شجرة بلوط
أغصانها متدلية جهة الغرب
وتحتها أرضية جيدة

لم أعد خائفاً لكوني لم أجد النمر هناك
لكني لم أره فوقي بأعلى الشجرة
حين رفعت عيني، رأيت أنه قضمه من جهة العنق
ثم فتح شقاً بصدره
أكل الكبد والقلب وجوفه كله
فَعل به فِعل الساطور
حين رفعت عيني، كان رِدفه باتجاهي
أوه، إنه النمر!
فبدأت أتحايل..
أقسم أني لم أعد قادراً على التنفس من شدة الخوف
استدرت بهدوء وغادرت المكان
والتحقت بقطيعي
بعد يومين من الحادث
عدت الى نفس المكان
ووجدت أن النمر أنزل فريسته للوادي"

في الوقت الراهن، يبدو أن المفترسات قد اختفت من حول العم علي، وباختفائها، زالت مخاوفه فاطمأن على نعاجه، وصار يعيش سكينةَ من يمتلك كل شيء، رغم فقد السنين، وما تحمله ملامحه الهادئة من أشياء كثيرة محطمة.
بينما نحن، فلازالت الشكوك تراودنا، ولا زلنا فريسة الوساوس والهوس، ولم نذعن، ولم نخرج بعد برأي حاسم.
فهل هو هاجسنا من يستبد بنا؟ أم العين الثالثة التي ترى أشياء أخرى مغايرة؟

نحو أعالي منطقة بوگنداز، مضينا نشاكس المنعرجات والمنحدرات الإلتوائية، منعطفين ومرتقين ربواتها صوب شاهد عيان آخر في شأن رؤية الفهد.

يعرف عن هذا المفترس، وشبيهه النمر، قدرته الفائقة على تسلق الأشجار عاضا على غنيمته لنهش لحمها في أمان، وبمنأى عن المهاجمين، أو لإخفاء ما تبقى منها وحجبه عن المتطفلين الانتهازيين.

ونحن بين ثنايا الأشجار، حضرتنا رواية الأستاذ لحسن شيلاص، الأستاذ الباحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة المولى إسماعيل بمكناس، الذي زودنا بصور التقطها لهيكل فريسة فوق شجرة شهر ماي سنة 2016 خلال جولة استطلاعية بغابة عين كحلة بمنتزه افران الوطني.

إتصال هاتفي مع الأستاذ لحسن شيلاص، الأستاذ الباحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس

- "الصورة تم أخذها بغابة عين كحلة التي توجد بقلب المنتزه الوطني بإفران.
الصورة هي عبارة عن بقايا عظام خروف تم رصدها معلقة بهذه الشجرة على علو ستة أو سبعة أمتار تقريباً في شهر ماي من سنة 2016.
السؤال المطروح هو كيف وصلت هذه العظام إلى هذا العلو من الشجرة؟
هل هو فعل أحد القوارض الكبيرة
أو أنه من فعل بشري.
فالسؤال مطروح، ولابد أنه مؤشر لأشياء مهمة لا زالت توجد بهذا المنتزه الوطني لإفران."

إنها أمارة قوية أخرى تجعلنا رهينة لقبضة اليقين، حتى وكأننا نرى هذا الضاري رأي العين يصول ويجول بين هذه الأحراش.
وهي أيضا، دليل على الفهد الذي يستهدف الأغنام كثيراً في الأراضي المكشوفة ذات الطرائد من هذا الحجم.

والأغنام وفيرة بهذه الجبال التي فقدت بيئاتُها القدرةَ على احتضان الحيوانات الضخمةِ المستهدفةِ من طرف المفترسات الكبيرة القادرة على اصطيادها.

على الطريق أيضا، وقفنا على بعض المطامير التقليدية القديمة، منثورة في موضعها المصطلح عليه بالمرس خاصة في المناطق الأمازيغية.
لعلها من حفْر الساكنة الإيمورية الأولى، أو لأحفادهم في الماضي بغرض تخزين وحفظ غلالهم من الحبوب بعيدا عن المهاجمين الأعداء، وعن الحشرات الطفيلية كذلك.
إنه لون آخر من ألوان الصراع من أجل البقاء والسيادة بصيغة بشرية، لازم الإنسان، كما الحيوان، منذ بدء الخليقة.
ويبدو أن هذه الحفر المنتمية إلى الزمن الماضي لم تكن مؤسسات اقتصادية فحسب، بل حصونا عسكرية كذلك، تدل عليها أشكال بعضها ذاتِ هندسة عسكرية دفاعية توحي بفترة اضطراب وانعدام للأمن.

بسافلتها، أُستحدثت ملاحقُ وشبهُ مرافقَ دالةٍ على اتخاذها مآوي وملاذات آمنة قصد تعزيز الاستقرار بهذه المرتفعات والدفاع عن حماها.

وقد تكون مجرد مستودعات تحت أرضية تخدم التبادل التجاري وتزويد أسواق المنطقة فترة مرور القوافل التجارية بالمجال البختي الواقع على طريقها، وعلى ممر الحملات العسكرية، أيضا، في فترات القلاقل والاضطرابات السياسية، قديما.

فـــــاصل

ثم وصلنا الى موضع موعدنا تحت ظل تعريشة خضراء من أغصان متشابكة لشجرة تينية في بداية إثمارها، بمنطقة تحاجِّيت.
بهذا الموضع كانت لنا حظوة استقبال الشيخ سعيد أوجاوج والسيد لحسن أوسيبو اللذين استضافانا في جلسة هادئة وملهمة، توخَّيناها فرصة لقطف ثمار جديدة عن حياة الفهد بهذه الجبال.

سعيد أوجاوج / شاهد
لحسن أوسيبو / من سكان المنطقة

- "كم عمرك؟
- لا أعرف لي تاريخاً محدداً
- لا تعرف
قدِّر كم تقريبا؟
- أنا طاعن في السن
- نريد منك أن تحدثنا عن تاريخ هذه المنطقة
وعن أقدم شيء هنا تتذكره
- وجدنا موطننا وقد شهد فترتين لسوقين في الماضي
- سوقان إثنان؟
- سوقان في مكان يسمى گروَقيون بين جبلين ببيگنداز
- ماذا عن المطامير؟
- كان السوق يُقام
والمطامير كانوا يخزنون بها المحاصيل كما قيل لنا
قبل أن تُوجد البنايات
- هم ليسوا بأيت إيمور؟
- ليسوا كذلك
أهالي البلد فحسب، هم من كانوا يدّخرون فيها مؤنهم
- هل كانوا يختبؤون بها خلال الحروب؟
- كان هناك عدو يتحاربون معه
وبيگنداز بها كهوف
- هل كانوا يخبؤون أبناءهم في تلك المطامير؟

- كان ثمة خوف، فيلجؤون إلى إخفاء محاصيلهم بها
ويحتمون بها كذلك
يختبؤون ويحتمون في الكهوف من الخوف السائد
- أود أن أسألك عن الحيوانات التي كانت تعيش هنا في الماضي
مثل النمر والأسد
- تلك كانت في الجبل والغابة، وقد رأيتها بنفسي
- رأيتها بنفسك؟
- كان ذلك منذ زمن بعيد
- أي الحيوانات رأيتَ؟
- صادفت الخنزير في الجبل القريب منا
وكنا نقتله بالسلاح آنذاك عندما يخرج
خرج يوما، ولم أكن متأكداً إن كان أسداً أم نمراً
أطلَّ، وكنت فوق تلة بها كهف
كان شعره ممتداً حتى منطقة العنق
يقال إنه نمر مرقط
ضربته بالسلاح
فاعتقدت أنني أصبته
فتحرك، وكنت أنا بعيداً جداً فوق التلة
لم يصبه سلاحي
فصرتُ أصيح لأُبعِده، لكنه يأبى الهروب
- هل قتلته؟
- هو يقول إنه ضربه، ولم يصبه وصار يراقبه حتى ابتعد
- وماذا عن النمر؟ هل سبق أن رآه هنا؟
- يقول لك هل رأيت النمر؟
- النمر لم أُصادفه، فهو يختبئ ولا أسمع سوى صوته في الجبل

- كان قد افترس بقرتي في هذا الجبل
- متى كان ذلك؟
- قبل زمن بعيد
- كم تقريبا؟
- هو يسألك كم مر على ذلك الحدث تقريبا؟
- ثلاثون سنة تقريباً أو أكثر
- فتك ببقرتين في ملكيتي
واحدة قتلها بين جبلين

وترك صغيرها العجل
أكل منها القليل فقط وتركها
وفعل نفس الشيء بالثانية
أكل منها القليل فقط وتركها
- هو لا يأكل البقرة كاملة
بل يأكل قلبها وكبدها فقط
- في الوقت الحالي، هل لايزال هنا نمر؟
- لا، لم يعد هنا نمر الآن
نحن نرعى في هذه النواحي ولم نصادفه يوماً
لم يعد هنا سوى الخنزير
- يحكي البعض أن أناساً عثروا على آثار أقدامه وقت تساقط الثلوج
- لا بد من المعرفة بشكل آثاره
وعلى من عثر عليها أن يعرف كيف يُميزها عن غيرها
فالبعض يعثر على آثار لكنه لا يعرف إطلاقا كيف يميزها
فآثاره تكون وكأنك تضغط على شيء في راحة يدك فيصير كمشةً
- تنضغط
- نعم تنكمش"

لقد كانت هذه الأدغال في الماضي غير البعيد، مستقراً لكثير من وحيش المغرب قبل أن تتحول إلى غابات يرود فيها القلق والعدم.
لقد داهمها القفر الإحيائي فأضحت خلاء مشجرا خاليا من دفء الحياة.
واقع مقلق بلا مراء في غير صالح تحقق التوازن البيئي اللازم والتناغم بين الكائنات الحية وبيئاتها فوق كوكب الأرض بشتى أجزائه.
خصوصا، والغابات والمياه وافرة والتساقطات المطرية منتظمة نسبيا هنا بما فيه الكفاية.

فهل أصبحت هذه الأدغال أرحاماً عقيمةً لا تلد وحيشاً ولا يُرجى منها نقير؟
وهل أقسمت البشرية أن تنسى كل عهودها تجاه الحياة ورعاية البيئات وواجب الحفاظ على استقرار نُظُمها مهما كلفها الثمن؟

ونحن نتواجد بمركز زاوية الشيخ، تم إخبارنا برؤية الوشق بالمجال الغابوي لمنطقة القصيبة.
أردنا التأكد من صحة الخبر، فانطلقنا نحو هذا الدير على مسافة حوالي ثمانية عشر كيلومترًا منا لأجل توثيق صور لهذا السنوري هو الآخر.

تصنف القصيبة ضمن المدن المغربية الأصيلة والعريقة، ورغم صغر مساحة هذه الجوهرة الأطلسية المنتمية إداريا إلى جهة بني ملال خنيفرة، فإن تاريخ تأسيسها يرجع إلى الفترة الإسماعيلية أواخر القرن السابع عشر، حسب أرجح الروايات.
شرق بني ملال، على بعد حوالي 45 كلم، تقف هذه المدينة الجميلة في سفح الجبل بالواجهة الغربية من سلسلة الأطلس المتوسط وسط شمال المغرب، على ارتفاع حوالي 990 مترا عن سطح البحر.
يصل تعداد ساكنتها حوالي 19 ألف نسمة حسب إحصاء سنة 2004
وهي تنعم بمناخ بارد رطب شتاء، وحار جاف صيفا.
يتأرجح طقسها نهارا ما بين 40 درجة إلى 4 درجات تحت الصفر في أغلب الأحيان.

يضم مجال القصيبة موقعا هاما صُنِّف ضمن المواقع ذات أهمية بيولوجية إيكولوجية على المستوى الوطني والعالمي.
يتواجد هذا الموقع بمنطقة تيزي نايت ويرّا، فوق كتلة جبلية جيرية بالمقدمة الجنوبية للأطلس المتوسط.
يتميز مجاله بواد وحوض تحت سفوح منحدرة، وبأجزاء كلسية أو ذات أحجار جيرية.
يضم هذا الموقع الفريد ستة عشر نوعا من الثديات، حسب معايير المواقع المصنفة ذات أهمية بيولوجية وإيكولوجية عبر العالم.
كما يضم إلى جانب هذه الأحياء أيضا، أربعة عشر نوعا آخر في محيطه.
ليضم في النهاية ثلاثين نوعا معروفًا حاليا على صعيد المنطقة.
بهذا الموقع، يتواجد إثنا عشر نوعا مهما مستوطنا، أو نادرا، أو في عداد المهدد بالانقراض.

ولتأكيد هذه المعلومات حول هذا التنوع البيولوجي والايكولوجي الهام، ضربنا موعداً مع المستشار في التنمية المستدامة، والفاعل الجمعوي بمنطقة تيزي نايت ويرا؛ السيد حسن مهنَّا، الذي أضاف لنا جديداً لم يكن في حسباننا ولا في حسبان الباحثين في العالم البيئي والإحيائي.
يتعلق هذا المستجد باكتشاف شجر البلوط الفليني فوق مساحة من حوالي هكتارين، ذات تربة كلسية من تركيبة جيرية.
وهو أمر غريب ونادر الحدوث، بالنظر إلى ما يعرف عن هذه الشجرة من استحالة نموها فوق التربة من أساس كلسي.

غير أن هذا القسم من شجرة البلوط الفليني، لم يتم بعد إضافته الى المواقع المصنفة ذات أهمية بيولوجية وايكولوجية رغم قربه من ذلك الموقع الذي تم تصنيفه من قِبل المعنيين بهذا الشأن البيولوجي البيئي.

وهو الهم الذي شغل الفاعلين الجمعويين والمهتمين بالبيئة، وجعلهم يهتمون بشأنه، ويسعون إلى التحسيس بقيمته، وإلى تثمينه والمحافظة عليه.

استجواب حسن مهنا / مستشار في التنمية المستدامة - فاعل جمعوي

- "نتواجد بمنطقة لها أهمية كبرى
وهي نادرة بهذا المجال الذي يغلب عليه نبات الكروش وأصناف أخرى.
يتواجد بهذه المنطقة ما بين هكتار وهكتارين لبلوط الفلين
وهو في الأصل، لا ينبت فوق هذه الأماكن، نظرا لتواجد الكلس
وبالتالي، نحن أمام أعجوبة طبيعية
هنا معلمة لديها أهمية كبيرة
ويجب الحفاظ عليها بتثمينها.
هذا البلوط أشيرَ إليه في دراسات الغابات بأيت ويرّا
وهي بصدد إعادتها وتجديدها
لأن الشيء عندما يكون نادراً جداً يصبح مَعْلمةً وأعجوبة، فيرغب الناس في مشاهدته.
لذلك يجب توظيفها سياحياً من جهة
من حيث البرامج التي تساعدنا على الإهتمام بها والحفاظ عليها
حتى لا تتلاشى ويذهب غناها الذي قد يعود بالنفع على الساكنة.
كما ترون الآن كأنه لم يعد لهذه الشجرة وجود
بالرغم من أن لديها نفس القيمة الإجتماعية والإيكولوجية والطبيعية
مثلها مثل أي نوع من الأشجار.
طرحت سؤالا على أحد الساكنة عن قيمة هذه الشجرة
فأجاب إنها مثل باقي الأشجار
هناك موجة سياحية من طرف المهتمين برياضة المشي في الغابات
لأن المنطقة سياحية بامتياز
نظراً لمناظرها الطبيعية وترحيب سكانها.
أظن أنه آن الأوان لتوظيف هذه الشجرة من أجل التنمية
وإدخالها في أنظمة الإنتاج عبر السياحة
وهذا يقتضي تأهيل منازل الساكنة بالمرافق الصحية
بحيث يستفيد الفلاح
وبالتالي سيوظف أرباحه من السياحة في الإهتمام بهذه الشجرة والمحافظة عليها.
الساكنة هنا ستستفيد من خلال بيع منتوجاتها المحلية كالبيض والدجاج.
كنا اقترحنا بناء ساقية لتفادي ضياع المياه بالوادي
وقامت المصالح الفلاحية ببنائها.
فأصبح الناس الآن هنا ينتجون القرع والبصل
بعدما كانوا يشترونها سابقا من السوق.

إذن عندما سيأتي السائح سيرغب بأكل طبيعي
وسيجده هنا وبالتالي سيعود بالنفع على الساكنة.
سنحارب بذلك ظاهرة التفحيم
نظرا لوجود بديل
وسنحارب كذلك الهجرة القروية
وسنساهم في تلاحم أفراد الأسرة
ولن يفكر الناس بالهجرة سواء إلى الخارج
أو إلى الداخل بالمدن المغربية للبحث عن الرزق
هنا سيشتغل بالفلاحة
وقد اكتشفت أن أناس هذه القبيلة لديهم مهارات ممتازة
ولديهم نظام قبلي قائم على الترحال
والمحافظة على ممتلكاتهم وعلى الموارد.
وتعد هذه المنطقة على طول شريط الدير وغابات الأطلس المتوسط
أحسن المناطق التي يحافظ ساكنتها على غاباتها"

- "هذه الغابة ملائمة لذلك الفهد الذي كنا نبحث عنه منذ زمن طويل
وأعتقد أن لدينا فرصة للعثور على شيء ما هنا
- بالفعل، فهذه المحطة تحظى بالعديد من الميزات
فالغابة هنا كثيفة
والساكنة منعدمة
والأرض وعرة
والمياه وافرة وتوجد بعض العيون
فلهذه الأسباب إذن، فمن الممكن أن يتواجد هنا
لأن ما يفضله هو المنطقة الوعرة
وكثافة الأشجار للإختباء من الرعاة
وهذه منطقة معروفة وذات أهمية إيكولوجية وبيولوجية
التي يرمز إليها ب SIBE
- هل هو مصنف؟
- هذا الموقع مصنف، ويشغل مساحة 14 هكتاراً
وما ينقصه هو أن نُبادر بتهيئته
بوضع العديد من البرامج والعمليات التي تمشي في هذا التوجه
وأنا شخصياً أعتبر أن هذه المنطقة
تقع في سلسلة من الجبال والغابات
التي تبدأ من جهة بني ملال إلى إيموزار كندر،

والتي توفر هذه الظروف وهذه الشروط
لأن هذا الحيوان بحاجة إلى مجال شاسع
لا تتخلله الطرقات وبعيد عن الضجيج
وكما تلاحظون فلا وجود للبهائم
لأن الساكنة توقفت خلال هذه العشر سنوات الأخيرة عن الرعي بهذه الغابات"

نصبنا كاميراتنا داخل هذه الغابة الكثيفة، قبل أن نعود الى زاوية الشيخ، حيث ضربنا موعداً آخر مع شاهد جديد لديه حكاية محيرة قد تقلب بعضاً من أوراقنا وحساباتنا قبل أن نسدل الستار على موضوع الفهد والنمر.

فـــــــاصل

خارج زاوية الشيخ، توجهنا لقرية أيت بوملال لمقابلة شاهد آخر من طينة خاصة يميزها عمرها العتي الذي يناهز المائة وعشرة أعوام كاملة

كنا ننتظر من الشيخ موحا رواية تشهد برؤيته للفهد الذي شغلتنا هذه الأدغال من أجل مصادفته زماناً، فإذا به يحكي لنا عن رؤيته لملك الغابة نفسه.

استجواب موحا بوملال / شاهد

- "كم عمرك حاليا؟
- حاليا 110 سنة
وقد دخلت في المائة وإحدى عشرة سنة
- تبارك الله أطال الله في عمرك
- أنا هو صاحب السبع بنفسي
لقد صادفني السبع
- صادفك؟
- كنت قد جئت ليلاً ببغلين
تركت والدتي بتلك الدار التي أتيتم منها في ذلك الجبل
ذهبت بأمي وتركتها عندهم
وجئت بأربع بقرات وكنت أنا ب تيحونا آيت عامر
وعندما انهيت الحصاد دفعت للعمال أجورهم
وانطلقت من عندهم
فغربت علي الشمس وأنا في الطريق بغابة تسمى متگوتة
- هنالك بمتكوتة وقع هذا الحدث؟

- هنالك رأيت السبع
- هل حدث ذلك نهاراً أم ليلاً؟
- بل في الليل
- كان ذلك خلال الليل؟
- خلال الليل بالذات
كان هناك جبل به طريق واحد
فإذا أخطأته فلن تجد لك ممراً
وإذا مِلت إلى ناحية فلن تجد من أين ستمر
وكانت بحوزتي بندقية
وكنتُ أعطيتها لأحد الأشخاص لم تكن وثائق بندقيته جاهزة بعد
وطلب مني أن أُعيره إياها ليصطاد بها يوماً
فأعطيتها إياه فأراد أن يُعبئها بالرصاص
فكسر شوكتها
- أحدث بها عطبا؟
- عطل شوكتها وردّها لي دون أن يخبرني بذلك
كنت أعتقد في نفسي أن البندقية خالية من العطب
أخذت الحقيبة والرصاص
سرحت البغال
وكانت هناك شجرة
فأختبأت وراء صخرة
مَخافة أن يرتدّ علي لو ضرب حجراً أو شجرة بلوط
- كيف التقيت به قبل أن تلجأ إلى هذا التصرف معه؟
- صادفته في تلك الثنية وهو قاعد في الممر
فرفضت البغال مواصلة سيرها
- هل كان جاثماً وليس واقفاً؟
- لقد وجدته جاثماً
متربصاً بمن يأتي ليفتك به
ولما صوّبت البندقية نحوه
سحبت الزناد هكذا
فأصدرتْ فحيحا ولم تنطلق
- كان سَحْبًا في الهواء
- كان في خواء
طرحتُ تلك الرصاصة وتناولت أخرى ووضعتها مكانها
وسحبت الزناد مرة أخرى دون جدوى
فتيقنت أن البندقية بها عطب

ولم أشعر بنفسي ولا بما حدث لها
صارت أرجلي كأكياس التبن
أرفع رجلي وكأنها كيس
- كانت ثقيلة
- فأحسست بالخطر
وعَضِضتُ على شفتي بأسناني
حتى سمعت صوتاً صادراً عن لحمها بسبب الضغط
فتساقط الدم على جنبي
وشعرت بالبرد وقد نفذ إلى لحمي فبدأت أستفيق
- كنت دائخا
- سحبت البندقية هكذا فهرب
لا أدري إن كان قد رأى البندقية أم ما الذي حدث
- كان قد رآك
- أكيد، إنه رآني ورأيته
- أدرك ما كنتَ تريد أن تفعله
- بالفعل
فانطلق إلى تلك الغابة وهو ينحنح
وصلت البغال إلى تلك الخيمة
- هل فرت البغال؟
- تبعني السبع
فلما سمع نباح الكلاب
هرب وذهب إلى حال سبيله
فحاولت رفع أرجلي ولم أقدر
فجلست في موضع
- متى حدث هذا الشيء؟
- كان ذلك قبل مدة طويلة
- عشرون سنة أم أربعون مثلا؟
- كان ذلك خلال فترة الاستقلال
- بعد الاستقلال
- لكنني لا أتذكر التاريخ بالضبط
- كم سنة مرت على الاستقلال حينها؟
هل مرت عليه سنة أم سنتين أم أكثر؟
- كان ذلك خلال السبعينيات أو الثمانينيات
- لم يكن عهداً بعيداً جداً إذن؟
- نعم، هذا ما حصل لي مع السبع

- هل كان أسداً أم نمراً؟
- بل الأسد
- صِفْه لي كيف هو؟
- لم يكن عنقه طويلا
وبه وبر
إنه كالمرسوم فوق علبة أعواد الثقاب
- هو يشبه المرسوم فوق علبة أعواد الثقاب؟
- هو أكبر من ذلك المرسوم فوقها
- أكبر من النمر؟
- أجل
- سبحان الله!
الثمانينيات ليست بعيدة كثيراً
وفي الوقت الحالي، هل لايزال هنا السبع؟
- إطلاقا، لم يعد هنا"

أرعينا سمعنا لحديث هذا الشيخ البوملالي المَهيب باهتمام تام
وتأملنا شبابه وحيويته وقوة ذاكرته رغم بلوغه من الكبر عِتيا
فتذكرنا ما يُحكى عن أهالي أيت بوملال من انتسابهم إلى قبائل أيت إيمور البائدة، على إعتبارهم من حفدتهم وبقاياهم بأيت أم البخت منذ مغادرتهم لهذا المجال
كما تذكرنا ما يروى عن فراعة طولهم، وقوة أبدانهم وشدة بأسهم وعشقهم للخيل والفروسية وكلها أوصاف يتميز بها أيت بوملال، وإلى حدود الآن.

كما كان اللقاء مع العم موحا، كذلك، فرصة لصياغة فرضيات ومنطلقات جديدة لبحث جديد، ربما.

ولتوسيع مجال بحثنا عن مثل هذه الكائنات التي جار عليها الانسان وطواها النسيان بين هذه الأحراش المترامية، إنتظرنا حلول الظلام، لنخرج في غلسه، رفقة ابن المنطقة، السيد رشيد بوصبري، إلى إحدى غابات أيت أم البخت في جولة ليلية، هذه المرة، لعلنا نظفر منها بصور موثّقة لصيد ثمين.

حاولنا التوغل قدر الإمكان داخل المجال الغابوي الصعب التضاريس، حيث عثر على آثار هذا الضاري مرات عديدة حسب ما حكاه لنا بعض المتعاونين.

رشيد بوصبري / مجموعة الإستغوار والإستكشاف والرحلات الجبلية زاوية الشيخ
- " أين صادفتم الآثار التي وجدتموها هذا العام؟

- وراء هذا الجبل مباشرة
في المكان المسمى أخبا نيران
هناك وجدنا الآثار

سأُنير المكان لعلنا نرى شيئاً
- كم الساعة الآن يا سيد رشيد؟
- إنها الواحدة ليلاً تقريباً

تمهل في القيادة"

توغلنا حتى انقطعت الطريق، لنتمم بعدها مشياً على الأقدام.

- "الطريق مقطوعة هنا
- تعال لنتأكد

- أسمع صوت الماء
- طبعا فهو أمامنا ونحن متوجهون إليه
الغابة أمامنا كثيفة
- هل يوجد شلال هنا؟
- نعم
اتبعني
هذا المكان هو الذي ترتوي منه معظم الحيوانات
- هذه الطريق تالفة
- صحيح
- أنظر لهذه الصخرة التي تقطع الطريق
أضئ لي تلك المنطقة!
هناك شيء يتحرك بالأسفل"

تحرينا صدور الأصوات، وتقصينا قرب مصادر المياه، وجربنا تقنيات التخفي وحيل التصوير الليلي في مثل هذه الأماكن، لكن، دون جدوى، كما العادة.

- "لنسلك تلك الطريق الأخرى
الجو بارد
- هو كذلك
ربما لهذا السبب لم يخرج الوحيش من مخابئه

لا حس لأي حيوان
- نحن في الصيف والجو بارد
- صحيح بسبب الإرتفاع"

أعدنا المحاولات مرات ومرات من غير آلات التصوير
وفي الأخير اقتنعنا أن الوقت الأنسب لمثل هذا التقصي لن يكون حتماً في فصل الصيف.

حوار رشيد والحسين

- "هذا الفصل فصل صيف يا رشيد،
وعلينا أن نقوم بمحاولة إن شاء الله
خلال موسم الثلج لهذه السنة
إتصلْ بي إن شاء الله
- سأتصل بك لتأتوا لأجل التقصي
- سنضع الكاميرا في أعلى ذلك المكان لعل المهمة تتيسر"

مضت أيام بلياليها ونهاراتها على نصب كاميراتنا
فقصدنا تيزي نايت ويرّا، ذات صباح لمراجعة ما يفترض أن تقتنصه عدساتها.
لكن النتيجة، كما عودتنا هذه المحاولات المتكررة منذ أعوام عديدة بمثل هذه الأدغال من غابات المغرب :
لا شيء ألتقط كما كنا نطمح، عن طريدنا، ولا عن غيره، سوى صور لحلاليف برية مألوفة في كل مكان.

وفي اللحظة التي تشعر فيها أن كل شيء يعاكس رغباتك، تأتيك أمور لم تكن في الحسبان لتغير مجرى الأحداث.

اتصال مبارك مع الحسين:
- "ألو، السيد مبارك
- ألو، السلام عليكم سيدي الحسين هل أنت بخير؟
- الحمد لله، وكيف حالك أنت؟ هل أنت بخير؟
- أنا بخير بارك الله فيك
ترى، هل وجدتم ذلك الفهد أم لا؟
- لم نعثر عليه بعد
ولا زلنا نبحث عنه
لقد وضعت للتو بعض الكاميرات

ولا زلت أبحث.
- لقد سمعت أخبارا جديدة مرة أخرى
هناك شخص تحدث الناس عن عثوره على السبع.
- ماذا؟
السبع؟"

أحمد شرماض ١ دجنبر ٢٠٢١